الفصل الخامس

في هذا الفصل نتناول حياة هذه السيدة القديسة العذراء البتول مريم بنت عمران عليها السلام ، وهذا الفصل يشتمل على هذه العناصر :

ـ المولد والنشأة ، كفالة زكريا عليه السلام ، فضائل مريم في القرآن الكريم :

ـ الآية الأولى : ـ الآية الثانية :

ـ الآية الثالثة : ـ الآية الرابعة :

ـ الآية الخامسة : ـ الآية السادسة :

ـ الآية السابعة: ـ الآية الثامنة :

ـ حديث القرآن الكريم عن مريم .

ـ فضائل مريم في السنة النبوية .

ـ مريم والمحراب .

ـ طلاقة القدرة الإلهية ، المعجزة الناطقة .

ـ التمور غذاء ودواء ، القيمة الغذائية للتمور .

ـ لماذا التمر بالذات دون غيره لمريم عليها السلام .

ـ حوار بين جبريل ومريم . ـ البعد عن الناس .

ـ بشرى وأمل . ـ تمني الموت .

ـ بريئة ومتهمة .

obeikandl.com

مريم ابنة عمران

المولد والنشأة

مهما كتب الكتاب وتحدث المحدثون ، فلم ولن يوفوا هذه العذراء حقها من التشريف والتمجيد ، ولكن لماذا يجهد الكتاب والباحثون أنفسهم عن الحديث عن سيدة نساء العالمين ؟

هل حديثهم عنها أو ذكرها في حديثهم يضيف إليها شيئاً من التشريف أو التمجيد ؟ كلا، لماذا ؟ لأنه بلغ من شرفها وتكريم ربها لها أن ذكرها الله في قرآنه في أكثر من موضع وفي أكثر من آية ، بل إن في القرآن الكريم سورة كريمة تحمل اسمها تسمى سورة مريم ـ فأي تشريف وأي تكريم ـ هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى . . .نلاحظ أن ميلاد مريم عليها السلام كان ميلادها أمراً فذا. . لماذا؟ . .

لأن الأم ظلت فترة من الزمن ليست بالقصيرة ، من غير إنجاب فمن الله عليها ورزقها بمريم. . .بعد أن نذرتها لله ، ولما أحست بحملها فرحت وسرت وإن كانت في قرارة نفسها تتمنى أن يكون هذا الحمل الذي أكرمها الله به بعد عناء وطول انتظار ودعاء إلى رب الأرض والسماء ، أن يكون ولداً ، لأن الولد له جلد على قوة التحمل للخدمة في بيت المقدس والعبادة ؛ لأنهم في زمانهم كانوا ينذرون أبناءهم للخدمة في أماكن الصلاة والعبادة تقرباً إلى الله فلما وضعت الأم جنينها فوجئت بأنه أنثى فوقفت كالمعتذرة قائلة : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران: ٣٦، ٣٧] .

فالحق تعالى أخبرنا أنه لما علم بحسن نية أم مريم وصدق يقينها ، تقبل الله منها نذرها ، وقبل دعاءها وجنّب ذريتها مس الشيطان ، وجعلها مباركة أينما كانت وأينما حلت ، ونشأت مريم العفيفة الطاهرة بين أسرة صالحة بين أب عابد صالح يؤم بني إسرائيل في صلاتهم ، ويدعوهم إلى الخير والصلاح ، وأم طاهرة عفيفة لم ينطق لسانها يوما بكلمة نابية ، بل كانت عابدة قانتة راكعة ساجدة ، فكانت نموذجًا فريداً

للمرأة المؤمنة ، في وسط هذا الجو الإيماني نشأت مريم عليها السلام ، وبين هذه الأسرة الصالحة استقبلت أيامها الأولى .

كفالة زكريا لها

شاءت الإرادة الإلهية أن يتوفى الأب ويترك هذه الطفلة المباركة والنبتة الطيبة والثمرة الصالحة مع أمها ولكن ما كان الله ليضيع أبناء الصالحين وما كان الصالحون ليتركوا أبناء بعضهم بعضا ضياعا . . . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى . . . يقول ابن جرير : قيل: إن أم مريم حين وضعتها وعرفت أنها أنثى فأرادت أن تفي بنذرها . . . فخرجت بها في خرقها إلى بني الكاهن ابن هارون ، أخي موسى عليهما السلام ، وهم يومئذ يلون في بيت المقدس ما تلى الحجبة من الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي أنثى ولا يدخل الكنيسة حائض ، وأنا لا أردها إلى بيتي . فقالوا : هذه ابنة إمامنا ، وكان عمران يؤمهم في الصلاة ، وصاحب قربانا .

فقال زكريا عليه السلام : ادفعوها لي فإن خالتها تحتي [أي زوجتي][1] فقالوا : لا تطيب أنفسنا هي ابنة إمامنا ، فلما احتدم الخلاف حول من يتولى كفالة مريم ويفوز بهذه المنزلة العظيمة والمكانة العالية الرفيعة ، وهذا كلاء الله ورعايته لأبناء عباده الصالحين ، احتكم المتنافسون إلى فعل الخير إلى إجراء القرعة بينهم ، فمن خرجت القرعة عليه فاز بكفالة هذه النذيرة المباركة ، وكان من عادتهم إذا أرادوا إجراء قرعة وخاصة إذا عظم الأمر يخرجون إلى نهر الأردن وهو قريب منهم واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة فأيهم يثبت في جيرية الماء فهو كافلها ـ [جيرية الماء عكس تيار الماء][2] ـ فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت ، ويقال :إنه ذهب صاعداً يشق جيرية الماء ، فعكسوا القرعة يميناً ويساراً فخرج قلم زكريا وجاءت القرعة في صالحه وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم ،

---

(١) تاريخ الطبري جـ٢صـ١١٨ بتصرف يسير .

(٢) قيل :إن سبب الكفالة زكريا لمريم ؛ أنه في عام من الأعوام حدث قحط وجدب في بني إسرائيل ، فناقلها زكريا وكان أبوها مازال على قيد الحياة كما تكفل رسول الله ﷺ بتربية =

وإمامهم ونبيهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين أجمعين .

بعد أن من الله تعالى على نبيه زكريا عليه السلام وفاز بهذه المنزلة الرفيعة وأصبحت مريم عليها السلام في كفالته اتخذ لها مكاناً في بيت المقدس لا يدخل عليها غيره ، ويأتي لها بالطعام والشراب والكساء ، فشبت وترعرعت في هذا الجو الإيماني، وهذه البقعة المباركة الطاهرة ، وعاشت تقتبس منه علما جما نافعا وعملاً صالحاً ، وأخذت الأيام ينادي بعضها بعضاً ومضت الشهور والأعوام ونبي الله زكريا عليه السلام في خدمتها بدون كلال أو ملل ، وذات يوم يدخل عليها فيجد عندها رزقاً أين كان هذا الرزق ؟ فقيل : إنه وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف أو وجد عندها شيئاً لم يأت به ، فسألها كالمتعجب قائلاً لها: من أين لك بهذا ؟

من الذي جاءك بهذا ولم يدخل عليك غيري ؟ وأن أحدًا لم يأت إليك بطعام أو شراب أو كساء غيري ؟ فأخبرته بحال يقينها وبحقيقة أمرها فقالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. . . وهذه كرامة من الله لأوليائه ، يحدثه الله لأوليائه في كل زمان ومكان .

فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه ، فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً ، فأتى فاطمة فقال :

« يا بنية هل عندك شيء آكله فإني جائع » قالت : لا والله ، بأبي أنت وأمي فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته في جفنة لها وقالت :والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي ـ تعني ولديها الحسن والحسين وزوجها الإمام علي كرم الله وجهه[1] ـ وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها :

= الامام علي كرم الله وجهه وهذا من قبلنا وشرعنا .

(١) مرجع سبقت الإشارة إليه .

فقالت : بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشيء فخبأته لك قال : هلمي يا بنية ، قالت: فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً فلما نظرت إليها بهت ـأي تعجبت ـ وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله وصليت على نبيه وقدمته إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه حمد الله وقال:« من أين لك هذا يا بنية ؟».

قالت : يا أبت ، هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

فحمد الله وقال : « الحمد لله الذي جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً وسئلت عنه قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب »، فبعث رسول الله ﷺ إلى علي ثم أكل رسول الله ﷺ ، وأكل علي وفاطمة وحسن والحسين وجمع أزواج النبي ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا جميعاً ـ قالت : وبقيت الجفنة كما هي قالت : فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً [١].

وأخرج البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كداية شديدة ، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق ، فقال : «أنا نازل »، ثم قام وبطنه معصوب[٢] عليه الحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً ـ فأخذ النبي ﷺ المعول[٣] فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم[٤] ، فقلت : يا رسول الله ائذن لي إلى البيت .

فقلت لامرأتي : رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر فعندك شيء ، قالت: عندي شعير وعناق[٥] فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ، بين الأثافي[٦] قد كاد أن تنضج فقلت :طعيم لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان ، قال :«كم هو ؟» فذكرت له ، فقال: «كثير طيب» ، قل لها: لا

(١) الكدية : الشيء الصلب بين الحجارة والطين .
(٢) معصوب : مشدود .
(٣) المعول : الفأس العظيمة التي ينقر بها الصخر .
(٤) أُهيلاً : سهلا سائلاً .
(٥) العناق : هي الأنثى من أولاد الماعز ما لم يتم له سنة .
(٦) الأثافي: الحجارة التي تنصب وتجعل القدر عليها .

تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي .

فقال : «قوموا » فقام المهاجرون والأنصار ، فلما دخل على امرأته فقالت: ويحك جاء النبي بالمهاجرين والأنصار ومن معهم . . .قالت: هل سألك؟

قلت : نعم ، فقال :«ادخلوا ولا تضاغطوا»[١] فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع ، فلم يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقى بقية ، قال :«كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة» [٢] وفي رواية ، فلم تزل تأكل وتهدي يومها . . .

فضائل مريم في القرآن

تحدث القرآن الكريم عن السيدة الفاضلة مريم بنت عمران ، في أكثر من آية وأكثر من موضع ، بل وصل التشريف والتكريم مداه أن ذكر في القرآن سورة تحمل اسمها تسمى بسورة مريم ،وهذا فضل وتشريف لا يدانيه تشريف أو تكريم .

الآية الأولى :

قال تعالى :﴿ **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ [آل عمران: ٣٦] .

فهذه السيدة الفاضلة أم مريم عندما وضعت حملها ووجدت أنه أنثى فقالت كالمعتذرة أنها كانت تتمنى أن يرزقها الله بولد ، لا لشيء ولكن لأن الولد له جلد وقوة على العبادة والخدمة في بيت المقدس .

وإني سميتها مريم ، وفي هذا دليل على جواز التسمية للمولود يوم الولادة وبذلك ثبت في السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال : « **ولد لي الليلة ولد وسميته إبراهيم**» .

هذا وقد دعت الله عز وجل أن يجنب هذه الوليدة الصغيرة من شر الشيطان وعوذت ذريتها كذلك ، وهو ولدها عيسى عليه السلام ، فاستجاب الله لها ذلك[٣].

---

(١) لا تضاغطوا : لا تزدحموا .

(٢) حياة الصحابة محمد يوسف الكندهلوي جـ٢صـ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير جـ٢صـ٢٠٥ .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إياه إلا مريم وابنها** » ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : اقرأوا إن شئتم : ﴿ **وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾(١) .

ويعلق صاحب الظلال فيقول : وهذا حديث النفس فيه شكل المناجاة القريبة ، مناجاة من يشعر أنه منفرد بربه ، يحدثه بما في نفسه وبما بين يديه ، ويقدم له ما يملك تقديما مباشراً لطيفاً وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم حال الود والقرب والمباشرة والمناجاة البسيطة العبارة ، التي لا تكلف فيها ولا تعقيد، مناجاة من يحسن أنه يحدث قريباً ودوداً سميعاً مجيباً ، وقبل أن تودع الأم هديتها تقول : وإني أُعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم وهذه كلمة القلب الخالص ، ورغبة القلب الخالص ، فما تود لوليدتها أمراً خيراً من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم (٢).

الآية الثانية :

قال تعالى : ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

قد تعددت الروايات وتنوعت الأخبار ، واشتهرت الآثار حول هذا الرزق ولكن لا نخوض في صفة هذا الرزق ، فيكفي أن نعرف أنها كانت مباركة يفيض من حولها الخير ، ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقاً ، حتى ليعجب كافلها وهو نبي ـ من فيض الرزق ـ فيسألها كيف ومن أين هذا كله ؟ فلا تزيد على أن تقول في خشوع وخضوع المؤمن واعترافه بنعمة الله وفضله وتفويض الأمر إليه كله .

الآية الثالثة :

﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾ [آل عمران : ٤٣ ، ٤٤] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) في ظلال القرآن جـ١ صـ٣٩٢ .

فهذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام ، عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد اصطفاها ، والاصطفاء الاختيار أي اختارها لكثرة عبادتها وزهدها ، وشرفها وطهارتها من الأقذار والوساوس ، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين .

فعن رسول الله ﷺ أنه قال : « **خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على زوج ولم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط**» وأي اصطفاء هذا ؟ وهو يختارها لتلقي النفخة المباشرة كما تلقاها أول هذه الخليقة آدم عليه السلام.

وقيل :طهرك من مس الرجال إلى غير ذلك من هذه الأقوال التي تدل على فضل ومكانة هذه السيدة الفاضلة ، وعلى مكانتها عند ربها .

الآية الرابعة :

قال تعالى :﴿ **وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء :١٥٦] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن اليهود عليهم لعائن الله المتتالية رموها بالزنا[١]، وقال السدي: والظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم ، فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك ، وقد زاد بعضهم وهي حائض فعليهم لعائن الله المتتالية إلى يوم القيامة [٢].

الآية الخامسة :

قال تعالى :﴿ **وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ** ﴾ [المؤمنون: ٥٠] .

يخبر الله عز وجل عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ أنه جعلهما آية للناس ، أي حجة قاطعة ، على قدرته على ما يشاء ، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ص٣٢٥.

(٢) تفسير الجلالين جـ١ ص٢٩٥.

وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى ، والربوة كما قال ابن عباس: هي المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ـ ذات قرار ـ أي ذات خصب ونماء وهذا من تدبير العلي القدير الذي يقول للشيء كن فيكون[١] .

الآية السادسة :

قال تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا** ﴾ [مريم:١٦] .

يخبر الله عز وجل أن السيدة مريم عليها السلام اعتزلت قومها ، وتنحت عنهم وذهبت إلى مكان شرق المسجد الأقصى ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة والحج إليه ، وما صرفهم عنه إلا قبل ربك: فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فصلوا قبل مطلع الشمس .

وعنه قال : إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت المشرق قبلة ، لقول الله تعالى : ﴿ **إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا** ﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة .

قال تعالى : ﴿ **فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا** ﴾ [مريم:٢٧] .

يخبر الحق تعالى عن مريم عليها السلام حين أمرت أن تصوم يومها ذلك وأن لا تكلم أحداً من الناس أو ترد على أحدٍ من البشر فإنها ستكتفي أمرها ويقام بحجتها ، فسلمت لأمر الله عز وجل واستسلمت لقضائه ، فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً، وقالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا أي أمراً عظيما [٢].

الآية السابعة :

قال تعالى : ﴿ **وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ** ﴾ [الزخرف:٥٧] .

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل ، يقول ابن عباس: يضحكون ، وقال قتادة : يخدعون ويضحكون .

قال النخعي : يعرضون . .وكان السبب في ذلك لما ذكره محمد بن إسحاق ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢صـ٥٦٦ .

(٢) مرجع سبقت الإشارة إليه .

في السيرة حيث قال : وجلس رسول الله ﷺ : فيما بلغني يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم ، ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾ . ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعري حتى جلس فقال الوليد بن المغيرة له :والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنَّا وما نعبد من دون الله في جهنم مع من عبده فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد العزير والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعري وأنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال :« **كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده** »، فإنهم يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** ﴾: أي عيسى وعزير ومن عبد منهم من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل ، فاتخذتهم من بعدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله .

الآية الثامنة:

قال تعالى :﴿ **وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ** ﴾ [التحريم: ١٢] .

هذا مدح من الله عز وجل لمريم بنت عمران ، وإخبار منه جل وعلا شأنه بأنها حفظت فرجها وصانته ، والإحصان هو العفاف والحرية ، فنفخنا فيه من روحنا ، أي بواسطة الملك ، وهو جبريل ، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي ، وأمر الله أن ينفخ فيه بفيه في جيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت في فرجها ، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام .

حديث القرآن الكريم عن مريم عليها السلام

إن المتصفح لكتاب الله عز وجل ، ليجد أن الله عز وجل أكرم السيدة مريم عليها السلام بأن ذُكرت في القرآن إحدى عشرة مرة تصريحاً .

هذا ومن أجل التيسير على القارئ الكريم ، نضع جدولاً يبين السور والآيات وأرقام الآيات ، وبيان أن هذه السور مكية أم مدنية والله ولي التوفيق[1].

اسم السورة	رقم السورة	عدد الآيات	مكية، مدنية	رقم الآيات	المطلوب	البحث عنه
آل عمران	٣	٤	مدنية	٣٢	مريم	مدنية
				٣٦		
				٤٣		
				٤٤		
النساء	٤	١	مدنية	١٥٦		
المؤمنون	٢٣	١	مكية	٥٠		
مريم	١٩	٢	مكية	١٦، ٢٧		
الزخرف	٤٣	١	مكية	٥٧		
التحريم	٦٦	١	مدنية	١٢		

وقد ذكرت مريم في القرآن إحدى عشرة مرة في ست سور من القرآن الكريم .

(١) هذه الآيات التي ورد فيها ذكر مريم عليها السلام رجعنا فيها إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، لمحمد عبد الباقي .

obeikandl.com

فضائل مريم عليها السلام
في السنة النبوية

من خلال هذه الكلمات اليسيرة والسطور القليلة نذكر حديث السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام ، عن السيدة العذراء مريم ابنة عمران عليها السلام .

روى الإمام أحمد والبخاري وغيرها: عن أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **حسبك من نساء العالمين بأربع ، مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد**»(١) .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال :خط رسول الله ﷺ أربعة خطوط فقال :« أتدرون ما هذا» ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : «**أفضل نساء أهل الجنة ، خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون** »(٢).

وعن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : « **كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث ، مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**» (٣).

من الملاحظ أن هذه الأحاديث صرحت بكمال مريم وآسية ، ولعل المراد بذلك في زمانهما فإن كل واحدة منهن كفلت نبيا في حال صغره .

فآسية كفلت موسى الكليم عليه السلام ، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام ، ومع ذلك فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة ، كخديجة وفاطمة .

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم ، والترمذي والنسائي عن هشام عن قتادة عن أنس بن مالك .

(٢)رواه النسائي ورواه ابن عساكر من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي داود.

(٣) رواه الجماعة لأبي داود من طريق شعبة وهذا الحديث صحيح اتفق الشيخان على إخراجه .

فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمس عشرة سنة وبعد البعثة أزيد من عشر سنين ، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها رضي الله عنها وأرضاها .

وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضل على إخوتها لأنها أُصيبت برسول الله ﷺ .

وبقية إخواتها متن في حياة النبي ﷺ .

وعائشة ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكراً غيرها ، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة بل ولا في غيرها أعلم منها ولا أفهم، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فأنزل براءتها من فوق سبع سموات ، وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تُبلغ عنه القرآن والسنة وتفتي المسلمين وتصلح بين المختلفين ، وهي أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنين والبنات في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين والأحسن الوقوف فيهما رضي الله عنهما وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ : «**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**» يحتمل أن يكون عاما بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن ، ويحتمل أن يكون عاما بالنسبة إلى ما عدا المذكورات والله أعلم [١].

والمقصود هنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام فإن الله طهرها واصطفاها على نساء العالمين زمانها ، ويجوز أن يكون فضلها على النساء مطلقاً .

وقيل: من باب تكريمها :إنها ستكون من زوجات رسول الله ﷺ في الجنة ، فقد روي عن المغيرة عن ثعلبي بن أبي داود ، أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه ، فقال لها : «**بالكره مني ما أرى منك يا خديجة وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً أما علمت أن الله زوجني معك في الجنة ، مريم بنت عمران وكُلثم أخت موسى ، وآسية امرأة فرعون** » قالت: وقد فعل الله بك ذلك يا رسول الله ، قال :« **نعم**»، قالت : بالرفاء والبنين[٢] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٢صـ٦١، ٦٢ بتصرف .

(٢) للأمانة العلمية هذا الحديث فيه مقال ولم يسلم من النقد .

نلخص من هذا ومما تقدم أن السيدة مريم عليها السلام نالت تكريمًا وتشريفاً على لسان سيد الخلق ﷺ لم تنله كثيرات من أترابها . . وما هذا إلا لمكانتها العالية ومنزلتها الرفيعة الغالية ، فكفاها فخراً أن كرمها ربها ورسوله الخاتم ﷺ .

مريم والمحراب

لكل مرحلة من مراحل الحياة ، وطور من أطوارها لهـا إعداد ما يناسب مراحلها المختلفة ، فمرحلة الطفـولة لها ما يناسبها ، ومرحلة الشباب لهـا ما يلائمها وكذلك مرحلة الشيخوخة والكهولة ، يعرف ذلك جيدا علماء التربية والمهتمون بها وهذه سنة عامة في حيـاة البشر العاديين أما من خصوا برعـاية من الله واصطفاء منه جل شأنه ، فلهم وضع آخر . . هذا من ناحية .

ومن ناحيـة أخرى . . فـقد اتخـذ نبي الله زكريا عليـه السلام مكاناً شـريفاً من المسجـد لمريم ، لا يدخله سواها ، فكانت تعـبد الله فيـه وتقوم بما يجب عليـها من سدنة البيت إذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبـادة ليلها ونهارها ، حتى صارت يضرب بها المثل بعـبادتهـا في بني إسـرائيل ، واشتـهرت بما ظهـر عليـها من الأحـوال الكريمة والصفات الشريفة ، حتى أنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقا غريبا في غير أوانه .

وهذا عطاء الله لأوليائه وخاصة من اصطفاه ، وهبتـه للمقربين إليه بعبادته فكان زكريا عليه السـلام يسألها قائلاً لها : أنى لك هذا ؟ فـتقول : هو من عند الله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ .

فعند ذلك وهنالك طمع زكـريا في وجود ولد من صلبه وإن كان قـد أسن وكبر فقال : يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه هب لي ولداً وإن كان في غير أوانه [١] .

ولما وصلت مـريم إلى هذه الحالة من النسـك والعبـادة ووصلت إلى هذه المكانة الشريفة مـن القرب إلى ربها ـ أصبحـت أهلاً أن الله عز وجل يبشرها بهـذه البشرى الغاليـة العظيمـة ـ فقـال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ**

(١) قصص الأنبياء لابن كثير صـ٥٤١ بتصرف .

﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢] .

فأُمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة ، فيقال : إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تفطرت قدماها رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها .

ويا لها من بشرى سعيدة غالية جاءت بعد شوق طويل وإعداد ونصب كبير ، يا مريم إن الله اصطفاك ، اختارك واجتباك ، فأكرم به من اختيار وأكرم به من اجتباء ، وطهرك من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة والخلل الجليلة والمكارم الحميدة، ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

والعلماء في هذا على قولين :

القول الأول : أن المراد أن الله عز وجل فضلها وكرمها على نساء عالمي زمانها ، لقوله تعالى لموسى :﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ وكقوله عن بني إسرائيل: ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عددا وأفضل علماً وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم .

هذا ويحتمل أن يكون قوله :﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ محفوظ بالعموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها أو وجد بعدها لأنها جاء القول في حقها بالأفضلية والاختيار والاصطفاء .

القول الثاني : أنها أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها وأيد هذا القول وقال به الجمهور من أهل السنة والجماعة .

والإشارة إلى الطهر في هذه الآية الكريمة ، إشارة ذات مغزى وذلك لما لابس عيسى عليه السلام من شبهات لم يتورع اليهود أن يلصقوها بمريم الطاهرة ، العفيفة ، معتمدين على أن هذا الولد لا مثال له في عالم الناس فيزعمون أن وراءه سراً لا يشرف قبحهم الله .

وهنا تظهر عظمة هذا الدين ، ويتبين مصدره عن يقين ، فها هو ذا محمد ﷺ. رسول الإسلام ، الذي يلقي من أهل الكتاب ومنهم النصارى ما يلقي من التكذيب والعنت والجدل والشبهات ها هو ذا يتحدث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على نساء العالمين ، بهذا الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق ، وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم ، ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد وبالدين الجديد فأي صدق وأي يقين وأي عظمة وأية دلالة على مصدر هذا الدين . . وصدق صاحبه الأمين .

طلاقة القدرة الإلهية

نحن الآن على موعد مع مرحلة من مراحل تحمل الشدائد والصعاب والكروب والأهوال التي لا تتحملها الجبال الراسيات ، فكم تحملتها ، وكم من عقبات كئود تطيش بعقول الراشدين من الرجال كل هذا وغيره تتحمله هذه السيدة المؤمنة الصابرة، وهذا مشهد من هذه المشاهد الحافلة بالأحداث .

كل هذا يشير إليه القرآن الكريم ، في قوله تعالى : ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢] .

إن السياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته ، هل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة ،فإذا هي علقة فمضغة فعظام ، ثم تكسى العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة ، فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط النموذجي تستكمل تسعة أشهر قمرية ، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فصارت البويضة سيرتها الطبيعية، كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية ، فتختصر المسافة والمراحل اختصاراً ، ويعقبها تكوين الجنين ونموه ، واكتماله في فترة وجيزة ، ولكن النص القرآني الكريم ليس فيه ما يدل على هذا أو ذاك وهذا من ناحية[١] .

ومن ناحية أخرى . . . ما سنذكره ما هو إلا اجتهادات علماء .

---

(١) الظلال لسيد قطب جـ٤صـ٢٣٠٦ ، ٢٣٠٧ .

يقول ابن كثير : إن غير واحد من السلف ذكروا أن جبريل نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها ، كما تحمل المرأة عند الجماع من بعلها، ولم يواجه الملك الفرج ، لأن الملائكة لا تنظر إلى عورات النساء ، ومن ذلك ما ذكره ابن هشام عندما نزل الوحي على رسول الله ﷺ ، أول مرة ذهب إلى السيدة خديجة رضي الله عنها .

فقالت :عندما يأتيك الذي يأتيك فأخبرني ، فلما جاءه الوحي قال لها:« **إن الذي يأتيني قد جاء** »، فقالت :اجلس على فخذي الأيمن فجلس ، فقالت: هل تراه، قال:« **نعم**» ، قالت: اجلس على فخذي الأيسر ، فجلس ، فقالت :هل تراه، قال : «**نعم** ». فكشفت شيئًا عن ثديها فقالت: هل تراه ، قال : «**لا**» . وقيل: كشفت عن رأسها فقالت: هل تراه ، فقال:« **لا**» . قالت : اعلم الذي يأتيك ملك وليس بشيطان ، فعرفت أن الملك لا ينظر إلى عورة النساء ، أما الشيطان فقرة عينه النظر إلى عورات النساء[1].

ومن خلال النص السابق قالوا : إن الملك جبريل عليه السلام لم يواجه الفرج ، بل نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه ، كما قال تعالى :﴿ **فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا** ﴾ .

يقول وهب بن منبه : إنها لما ظهرت عليها مخابل الحمل ، فجاءتها أختها زوجة نبي الله زكريا عليه السلام تزورها فتلزمها فلما التزمتها علمت أنها حبلى وذكرت مريم حالها ، فقالت امرأة زكريا: إني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك ، وذلك قوله تعالى :﴿ **مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ** ﴾ .

وذكر السدي بإسناده عن الصحابة أن مريم دخلت يوما على أختها فقالت لها أختها : أشعرت أني حبلى ؟ فقالت مريم : وشعرت أيضاً أني حبلى ، فاعتنقتا وقالت لها أم يحيى : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك . .وذلك معنى قوله: ﴿ **مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ** ﴾ .

ومعنى السجود هاهنا الخضوع والتعليم ، كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان

---

(١) السيرة لابن هشام جـ٢ص١٧٥ .

في شرع من قبلنا ،كما أمر الله عز وجل الملائكة بالسجود لآدم :

﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ [مريم: ٢٢] (١) .

فلما بدأ يظهر عليها مخابل الحمل ، اعتزلت الناس واعتزلت قومها واتخذت مكانا بعيدا عن أعين الناس ، قال ابن عباس: ذهبت إلى أقصى الوادي ، وهو وادي بيت لحم ، بينه وبين إيلياء . .بيت المقدس أربعة أميال ، وإنما فرت وبعدت فراراً من تعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج وهي من هي في العبادة والصلاح .

يقول وهب بن منبه: إن مريم لما حملت بعيسى عليه السلام ، كان معها ابن عم لها يقال له: يوسف النجار وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكان يوسف ومريم يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم في أهل زمانهما أحد أشد اجتهاداً ولا عبادة منهما، وأول من عرف حمل مريم يوسف ، فتحير في أمرها فكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها ، وأنها لم تغب عنه ساعة قط ، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر بها من الحمل فأول ما تكلم أنه قال: إنه وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت على كتمانه فغلبني ذلك فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري ، فقالت :قل قولاً جميلاً . .قال: أخبريني يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر ، وهل تنبت شجرة من غير غيث ، وهل يكون ولد من غير ذكر؟

قالت : نعم . .ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر وهذا البذر إنما حصل من الزرع الذي أنبته من غير بذر ، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق كل واحد منهما على حدة .

أو تقول : إن الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء ، ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها ، فقال يوسف :لأقول هذا ولكني أقول: إن الله قادر على ما يشاء فيقول له كن فيكون ، فقالت له مريم : أولم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى ؟

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ بتصرف .

فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه، وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب ، فلما دنا نفاسها ، أي وضعها ، أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك لئلا يقتلوا ولدك ، فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له ، فلما بلغت تلك البلاد أدركها النفاس فألجأها إلى أصل نخلة ، وذلك في زمان بر· فاحتضنتها فوضعت عندها .

يقول صاحب الكشاف :كان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة ، وكان الوقت شتاء والتعريف إما يكون من تعريف الأسماء الغالبة لتعريف النجم والصعق ، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس فإذا قيل :جذع النخلة فهم منه ذلك دون سائره، وإما أن يكون تعريف الجنس أي إلى جذع هذه الشجرة خاصة كأن الله أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو أشد الأشياء موافقة للنفساء ؛ ولأن النخلة من أقل الأشياء صبراً على البرد ولا تثمر إلا عند اللقاح ، وإذا قطعت رأسها لم تثمر ، فكأنه تعالى قال كما أن الأنثى لا تلد إلا مع الذكر فكذا النخلة لا تثمر إلا عند اللقاح ، ثم إني أظهر الرطب من غير اللقاح ليدل على جواز ظهور الولد من غير ذكر . . .

هذا ونحن بعون من الله وتوفيق منه ، نذكر خلال السطور القليلة القادمة فوائد التمر بالنسبة للحامل ، والتي تضع حملها ، بل وللإنسانية جمعاء ، ولم يكن عبثاً أن أوحى الله عز وجل لمريم أن تأكل من هذه الشجرة المباركة، النخلة ، وكم مرة ذكرت في كتاب الله عز وجل[١] . . .

(١) مرجع سبقت الإشارة إليه .

المعجزة الناطقة

نحن الآن في مرحلة من أحلك المراحل ومن أصعب المواقف ، وفي ظرف من أصعب الظروف ، ومن أشق الأحداث على السيدة العذراء عليها السلام. . .ومع هذا كله تقع المعجزة الكبرى ، وتعالوا لنستمع إلى هذا البيان الإلهي الذي يقصه علينا القرآن الكريم في أروع بيان وأرق وأروع عبارة معجزة فقال تعالى :﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤-٢٦] .

يا الله طفل ولد اللحظة يناديها من تحتها ، يطمئن قلبها ويصلها بربها ويرشدها إلى طعامها وشرابها ويدلها على حجتها ،وإن كان العلماء في هذه المسألة على آراء نذكرها مختصرة . .

قيل: إن المنادي . . .عيسى عليه السلام ، بأن الله أنطقه لها حين وضعته تطييباً لقلبها وإزالة للوحشة عنها ، حتى شاهد في أول الأمر ما بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك المولود ، وأنه ليس جبريل لأنه لا يصح أن ينظر إلى عورات النساء أو يكون في مكان وموضع اللوث والنظر إلى العورة وهذا لا يليق بالملائكة. . .

وقيل: إن المنادي جبريل عليه السلام ، وأنه ناداها من أقصى الوادي ، ومع احترامنا وتقديرنا لهذه الآراء فإننا نفوض أمرها إلى علم الله عز وجل ونوقن أنها معجزة من صنع العلي القدير الذي يقول للشيء: كن فيكون، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى . .فقد أكمل الله نعمته على هذه السيدة الفاضلة بأن أجرى تحت قدميها جدولاً فيه ماء ساري ، والأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من سيل ماء في الجبل ، وهذه النخلة التي تستندين إليها هزيها فتساقط عليك رطباً ، فهذا طعام وذاك شراب فكلي واشربي هنيئاً وقري عينا ، واطمئني قلبا ، فأما إذا واجهت أحدًا من البشر فأعلنيه بطريقة غير الكلام ، أنك نذرت للرحمن صوما عن

حديث الناس وانقطعت للعبادة ولا تجيبي أحداً عن سؤال[١] .

وهذا من تمام كلام من ناداها من تحتها ، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام ، فأما في شريعتنا فيكره لصائم صمت يومًا إلى الليل . . . وإن كان من السنة في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح .

قال عليه الصلاة والسلام :

«إذا كان أحدكم صائم فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم » ، وقال عليه الصلاة والسلام : **« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه »** .

وقيل : إن الله عز وجل : أمرها بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع من اتهمها في الكلام لمعنيين :

الأول : أن كلام عيسى عليه السلام أقوى في إزالة التهمة من كلامها وفيه دلالة على أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى .

الثاني : كراهة مجادلة السفهاء ،وأن السكوت عن السفيه واجب ، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مشافهاً هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى . . .نحسبها قد دهشت طويلاً ، وبهتت طويلاً ، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطبا جنيا .

ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله عز وجل لا يتركها ، وإلى أن حجتها معها هذا الطفل الذي ينطق في المهد فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها .

---

(١) مرجع سبقت الإشارة إليه بتصرف .

التمور غذاء ودواء

لقد أنعم الله عز وجل على عباده بأن أحل لهم الطيبات من الرزق مما فيه نفعهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ .

وتعد الفاكهة باختلاف أنواعها وأشكالها من أكثر أنواع الطعام فائدة للإنسان ، وقد جمع الله فيها بين الغذاء والدواء ، بما فيها من عناصر متنوعة وعديدة، وقد خص الله سبحانه وتعالى بعض أنواع الفاكهة بالذكر في كتابه الكريم ، وذلك لعلمه عز وجل وهو العليم بما فيها من فوائد عظيمة ، ومن أنواع الفاكهة التي خصها الله سبحانه وتعالى بالذكر في كتابه الكريم ، فاكهة التمر فقد جاء بشأنها العديد من الآيات في القرآن الكريم وذكر النخيل في أكثر من موضع ، وذلك لفضلها على غيرها من الفاكهة .

وقد ذكر النخيل على سبيل المثال في سورة الرحمن عندما عدد الله سبحانه وتعالى النعم التي أنعم بها على عباده ،فكان النخيل إحدى هذه النعم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾ [الرحمن:١١] وذكر النخيل في قوله تعالى للسيدة مريم وهي تلد نبي الله عيسى عليه السلام : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٥، ٢٦] وكذلك في سورة ق :﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق: ١٠، ١١] .

وبالنظر في كتاب الله نجد أن النخيل قد ذكر في العديد من السور وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على فضل التمر على غيره من أنواع الفاكهة الأخرى .

ومن الجدير بالذكر . .أن أشجار النخيل من النباتات أحادية الفلقة ، وهي من فواكه المنطقة تحت الاستوائية ، والموطن الأصلي لها هو الخليج العربي ، بصفة خاصة وبلاد العرب بصفة عامة ، وكان النخيل موجوداً في جمهورية مصر العربية منذ عهد الفراعنة ، ويدل على ذلك النقوش الموجودة في معابدهم ، والجزء الاقتصادي في شجرة النخيل هو الثمرة وهو الجزء الذي يؤكل ، وتمر الثمرة في النخيل بعدة أطوار

من النمو حتى تصل إلى الطور النهائي ، ويطلق على الثمرة عندما تبلغ هذا الطور كلمة تمر وهو مسمى يكاد يكون عاماً في معظم البلاد العربية التي تزرع النخيل ، إلا أنه في مصر يطلق عليه [بلح] وفي مسقط بعمان تسمى [سح] وفي مراكش تسمى [أبلوح][١] .

هذا وشجرة النخيل شجرة معطاءة فكل أجزاء النخلة يمكن استغلالها اقتصاديا وتقوم عليها عدة صناعات يدوية ، فأوراق النخيل [العسف] تستخدم في عمل الأسبتة . والسلال وليف النخيل يستخدم في عمل الحبال المتينة ، وأفرع النخيل [الجريد] يستخدم في عمل الأقفاص وأسقف المنازل في الريف وبالاستعانة بجذوع النخيل .

ويعد النخيل مخزوناً هائلاً من الغذاء ، ويعد خط دفاع من خطوط دفاعنا الغذائية والتي أقامها لنا الأجداد ، لذلك يعد النخيل الاحتياطي الاستراتيجي لمواجهة أيام المجاعات وأيام الحصار والحروب والصراع العالمي على الغذاء ، وقد عرف شعبنا العربي في الجماهيرية العربية الليبية ذلك أيام مقاومته الباسلة ضد الاحتلال الإيطالي وخاض حرباً طويلة غير متكافئة كان الخيل فيها هو الحصن والتمر هو الغذاء ،والإيمان هو السلاح، وسجل فيها الشعب الليبي أروع صور الجهاد بقيادة المجاهد الشهيد عمر المختار[٢].

(١) نشرة كلية الزراعة جامعة أسيوط صـ١٥٩ .

(٢) مجلة الوعي الإسلامي العدد ٣٤١ السنة الحادية والعشرون يونيو ١٩٩٤م .

النخيل والعلم الحديث

وجاء العلم الحديث ليؤكد للنخيل أهميته وتكشف الأبحاث المتتالية عن الفوائد العظيمة للتمر ، ويؤكد العلماء أن التمر يعد في مقدمة الوجبات الغذائية الغنية بالفيتامينات والمعادن والسكريات ، بل وتؤكد الأبحاث أن الإنسان يمكنه العيش على التمر فقط ولفترة طويلة دون أن تظهر عليه أعراض سوء التغذية ، ذلك لأن التمر يحتوي على المواد الغذائية الرئيسية بصورة مركزة سهلة الهضم واتجه العالم بعد اكتشاف القيمة الغذائية الكبيرة لثمر النخيل إلى الاهتمام بالنخيل ، وقد نشر بجريدة الأخبار القاهرية ـ تحت عنوان ـ عمتنا النخلة في أمريكا خبر مفاده أن أمريكا قامت باستيراد (١١٨٠) نخلة من العراق وتونس والجزائر وإيران ، وأنشأت أول مزرعة للنخيل بولاية أرزونا الأمريكية عام ١٩١٢، ثم نقلت الدفعة الثانية من فسائل النخيل من مصر عام ١٩١٥م وتوالى استيراد أمريكا للنخيل بعد ذلك بأعداد كبيرة ، وأنشأت في ولاية كاليفورنيا أكبر محطة علمية للنخيل في العالم .

وهذا الخبر يسير في النفس الأسى والغضب في وقت واحد ، إذ إنه في الوقت الذي بدأ فيه العالم الاهتمام بالنخيل ، وذلك لأثر ثمرة النخيل الإيجابية على الصحة العامة ، نقوم نحن بنصب المشانق للنخيل ، ونقوم بذبح كنوز الغذاء التي فوق رؤوسنا لنصنع جوعنا بأيدينا ونعدم مخزوناً هائلاً من الغذاء يحمينا من سؤال اللئيم ونهدم حصوناً منيعة لا تحاصر ولا تحترق على جبهة الأمن الغذائي العربي [١].

(١) الأخبار القاهرية ٢٧/ ١٠/ ١٩٩١م .

القيمة الغذائية للتمر

لقد أثبتت الدراسات العلمية والفحوص المعملية والتحاليل الكيماوية أن للتمر قيمة غذائية تماثل قيمة اللحوم ، بل وتتفوق عليها في أنه ليس له شيء من أضرارها، وأنه أفضل الفواكه من هذه الناحية، لأن التمر يحتوي على العناصر الغذائية اللازمة لجسم الإنسان من بروتينات وكربوهيدرات ، وأملاح وفيتامينات ومعادن . . إلخ.

والجدول التالي يوضح بالتحاليل الكيماوي للتمر ما يحويه من عناصر غذائية، لما يوجد بالإضافة إلى المكونات السابقة نسب معقولة من فيتامين ب ١ ، ب ٢ ، أما السعرات الحرارية فتصل إلى [٣٥٣] سعرًا حراريًا لكل مائة جرام من التمر [١].

العنصر	ملجم لكل ١٠٠ جرام
بوتاسيوم	٧٨ ملجرام
فسفور	٧٢ ملجرام
كالسيوم	٦٥ ملجرام
كبريت	٦٥ ملجرام
ماغنسيوم	٦٥ ملجرام
حديد	٥,١ ملجرام
بروتين	٢,٢ ملجرام
ألياف	٢,٤ ملجرام
صوديوم	١ ملجرام

لما يحتوي عليه التمر من سكريات سهلة الاحتراق تبلغ نسبتها حوالي ٧٥٪ ، وكما أن التمر يحتوي على هذا الكم الهائل من المواد الغذائية والتي لا غنى عنها لجسم الإنسان وفي صورة مركزة سهلة الهضم ؛ لذلك فإن التمر غذاء ودواء؛ لأن

(١) نشرة كلية الزراعة جامعة أسيوط.

قيمة التمر الغذائية العالية تساعد في الوقاية من الإصابة بالعديد من الأمراض ويكون أيضا علاجًا ناجحًا لعدد آخر منها.

وقد لوحظ أن المناطق التي يمثل فيها التمر عادة غذائية يومية يقل فيها المصابون بضعف الإبصار، ونادرًا ما تجد أحد المقيمين بمناطق إنتاج التمر وهو يرتدي نظارة طبية، ويحصلون عادة على أعلى الدرجات في كشف النظر، هذا يرجع إلى وجود فيتامين [أ، وفيتامين ب١ ، ب٢] في التمر.

كما لوحظ أيضًا أن التمر يفيد في علاج الأنيميا ، فقد وجد بمحافظة الفيوم وهي من مناطق إنتاج التمر بجمهورية مصر العربية، أن الأنيميا منخفضة والفتوة تكاد تنفجر في وجوه الفتية والفتيات.

وتكشف الأبحاث العلمية أن مداومة أكل التمر يحمي جسم الإنسان من مرض السرطان الخبيث ،وذلك لوجود مادة الفوسفور والتي تقي من السرطان بالتمر، ولأن التمر يحتوي على مقدار مناسب من حمض النيكوتين ،لذلك فهو يقي من مرض البلاجرا، كما يحتوي التمر على مواد من شأنها خفض ضغط الدم المرتفع وتحمي مريض ضغط الدم المرتفع من المضاعفات الخطيرة للمرض مثل الضجر والصداع ، لذلك يحتوي التمر على مادة تساعد على زيادة حركة الأمعاء للتخلص مما به من فضلات فيمنع حدوث الإمساك، وهو ما يستعمل حديثا بإجراء الحقنة الشرجية، كما أن التمر يساعد على إدرار البول، فهو بذلك يفيد مرضى الحصوات ، كما أن التمر يمنع حدوث مرض البواسير ويقي التمر جلد الإنسان من الإصابة بالأمراض الجلدية.

وفي مجال الصحة النفسية أثبت العلم الحديث أن التمر يهدئ الأعصاب القلقة المضطربة ؛لأنه يحد من نشاط الغدة الدرقية ، وهذا يفسر لنا سبب أمر الله عز وجل للسيدة مريم رضي الله عنها بتناول التمر وهي في حالة قلق واضطراب بسبب الولادة وهي وحيدة فريدة[1] وذلك في قوله تعالى :﴿ **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا** ﴾ [مريم : ٢٢].

---

(١) الوعي الإسلامي العدد ٣٤١ شهر محرم ١٤١٥هـ - يونيو ١٩٩٤ ص ٧٦، ٧٧.

لماذا التمر بالذات للسيدة مريم ؟

قال تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [مريم : ٢٢].

بعد أربعة عشر قرنا من الزمان من ظهور الإسلام ، ينشط الباحثون والعلماء ليحاولوا معرفة السر وراء ذكر التمر بالذات للسيدة مريم وقت ولادتها عليها وعلى وليدها السلام.

ويرشدهم الله عز وجل وهو خير الراشدين إلى أن العبرة في ذلك أنه بجانب أن التمر يحتوي على المواد الغذائية الرئيسية في صورة مركزة سهلة الهضم، وأنه يناسبها أيضا الطعام في وقت النفاس ، فإنه يحتوي في الوقت نفسه على مواد من شأنها خفض ضغط الدم المرتفع ذي الأثر الخطير على الحامل وعلى الطفل أيضا خاصة في الأشهر الأخيرة من الحمل .

فقد أكد الأطباء أن ارتفاع ضغط الدم إذا كان مصحوبا بتورم في الأرجل [أوديما] مع وجود زلال في البول ما يعرف [بتسمم الحمل] وتزيد هذه الحالة خطورة إذا كانت مصحوبة بغيبوبة مع تشنجات قد تؤدي إلى وفاة الحامل إذ لم يتدخل الطبيب لإنزال الحمل .

ولعلاج ذلك المرض المزمن يستخدم حديثاً مخفضات ضغط الدم المرتفع [الجلوكوز والكالسيوم وفيتامين ب المركب] وكل هذه المركبات توجد في التمر [١].

ومن ناحية أخرى نجد أن الطب الحديث يستخدم أدوية منها ما يستخلص من الأرجوات وهو ما يسمى [ميثرجين]، ويستعمل هذا العقار كمنشط لانقباضات الرحم بعد تمام الولادة ونزول المشيمة فهو يقوي ويزيد من فترة الانقباضات الرحمية ويمنع حدوث النزيف بعد الولادة ، ويساعد في رجوع الرحم إلى حجمه الطبيعي ويستعمل أيضاً لانقباضات الرحم ، وهو أسرع من عقار الأرجوت ، ولكن تأثيره لوقت قصير، إلا أن المركبات السابقة تؤدي إلى حدوث مضاعفات خطيرة ، فقد يؤدي

(١) منبر الإسلام العدد ١٠ شهر رجب سنة ١٤١٩هـ صـ٩٥ .

مستخلص الأرجوت إلى حدوث غـرغرينة نتيجة لنقص الدم الواصل للأطراف، وقد يؤدي الهرمون الذي يستخرج من الغدة النخامية إلى الحساسية [١].

وبفضل الله وهدايته ورحمته لنا توصلت الأبحـاث العلمية أخيراً إلى أن التمر به مادة تسـاعد على الانقـباضـات الرحميـة في الأشهـر الأولى من الحمل وأثناء فـترة النفاس، وبدون أي مضاعفات من تلك التي تسببها العقارات الأخرى، فقد أقر العلم أن بالتمـر هرموناً اسمه [البـيتوسين] يقوي انقـباضات الرحم وينظمـها وينظم الطلق ويجعله متوازناً، كما وجد أن لهذا الهـرمون خاصية منع النزيف عقب الولادة ، كما أنه يقي من أمراض الولادة وعلى رأسها حمى النفاس .

مما سبق نرى السر وراء ذكر الله عز وجل مـريم عليها وعلى وليدها السلام وهي في حالة الوضع ،وذلك بجوار النخيل ،وأنه سبحانه وتعالى أرشدها إلى أن تأكل من تلك الثمرة المباركة، وذلك لعلمه وهو العليم القدير بمـا فيها من فوائد جمة لها وهي في حالة الوضع، وذلك ليـيسر لها ولادة رسول من رسله ، وهي فـي وحدتها ليس بجانبها أحد من البشر يساعدها على تحمل الألم ومصاعب الولادة [٢] .

وبعـــد فلنكرم النخلة التي ذكـرت في كتاب ربنا وقرآنه الكريم في أكـثر من آية وأكثـر من موضع في قـرآنه الكريم الذي لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلـفه فلنكرم النخلة الـتي ولدت تحتـها مـريم بنت عـمران رسـولاً من رسل الله ، فلنكرم النخلة التي حن جذعها لرسول الله ﷺ ، فلنكرم النخلة والنخيل حتى لا يسقط أحد خطوط دفاعنا الغذائية ونسقط في دوامة الصراع على الغذاء ، وخطر المجاعات .

فلنكرم النخلة لنقـدم تمرها لأطفالنا بدلاً من الحلوى الممـزوجة بالألوان السـامة، وكيف لا نكرم النخلة والنخيل والرسول ﷺ يحثنا : «**إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها**» رواه أحمد ، وكيف لا نغرس النخيل وغرس النخيل صـدقة جارية لا ينقطع أجرها أو ثوابها عن صاحـبها سواء في حياته أو بعد مماته ،فلنغرس النخيل ما اسـتطعنا حتى تتحول بلادنا إلى واحة خضراء وقطعة من النماء والغذاء ، والاعتماد على الذات في كرتنا الأرضية .

---

(١) الوعي الاسلامي ـ محمد فتحي الغزالي مهندس زراعي وخبير بيئة .

(٢) القرآن شفاء ودواء عبد الرازق نوفل صـ١١٠ .

حوار بين جبريل ومريم

قال تعالى : ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢٠، ٢١] .

تعالوا لنعيش هذا الحوار الذي دار بين الملك جبريل عليه السلام ومريم ابنة عمران . . فبعد أن كشف لها الهدف من دخوله خلوتها ، وبدون إذنها وفوجئت به ، وبشرها بولد منها . . وهنا جاء التعجب منها وقالت : كيف ؟

هكذا في صراحة وبالألفاظ المكشوفة ، فهي والرجل في خلوة والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفا ، فما تعرف هي بعد كيف يهب لها غلاماً . . وما يخفف من روع الموقف أن يقول لها : إنما أنا رسول ربك ، ولأنه مرسل ليهب لها غلامًا طاهرًا غير مدنس المولد ، ولا مدنس السيرة ، ليطمئن بالها ، فالحياء هنا لا يجدي ، والصراحة أولى ، كيف وهي عذراء لم يمسسها بشر ، وما هي بغي فتقبل الفعلة التي تنجب منها بغلام .

ويبدو من سؤالها أنها لم تكن حتى هذه اللحظة تنتظر وسيلة أخرى لأن يهبها غلاما إلا الوسيلة المعهودة بين الذكر والأنثى ، وهذا هو الطبيعي بحكم التصور البشري ، وهذا من حكم العادة والعادات عند أهل المعرفة معتبرة في الأمور ، وإن جوزوا خلاف ذلك في القدرة فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء، وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد ، ولأنها كانت منفردة بالعبادة ، ومن يكون كذلك من أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك[١].

ويقول العلامة القرطبي ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ـ أي زانية .

وذكرت هذا تأكيداً ؛ لأن قولها : ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ يشمل الحلال والحرام ، وقيل ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئاً ولكن أرادت أن تعرف كيف يكون هذا الولد ، من قبل الزوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء [٢].

(١) الظلال جـ٤ .

(٢) تفسير القرطبي .

ويقول ابن كثير: عندما تعجبت من وجود ولد من غير زوج ولا هي ممن يتزوج لأنه في بني إسرائيل ممن ينقطع للعبادة فقط لا يتزوج أو يبغي الزواج، وهي كانت من هؤلاء فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضي أمراً فإنما يقول له كن فيكون، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله ، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها فإن الناس يتكلمون فيها بسببه ؛ لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر ، وإنهم ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل.

﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١] .

ما زال الحوار قائم بين العذراء وجبريل عليهما السلام ، وفي حالة من السؤال والجواب ، والاستفسار عن هذا المولود الذي يأتي بطريقة عجيبة غريبة على فهم الناس واعتقادهم . . .

فهذا الأمر الخارق الذي لا تتصور مريم وقوعه ، هين على الله ، فأمام القدرة التي يقول للشيء كن فيكون ، كل شيء هين ، سواء وجرت به السنة المعهودة أو وجرت بغيره. . . والروح الأمين . يخبرها بأن ربها يخبرها بأن هذا هين عليه ، وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس وعلامة على قدرته وحرية إرادته ورحمة لبني إسرائيل أولاً وللبشرية جميعاً ، بإبراز هذا الحادث الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه .

قيل: إن جبريل أجابها بقوله :﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وهو كقوله : ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] لا يمتنع فعل ما يريد خلقه ولا يحتاج في إنشائه إلى الآلات ومواد .

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ يحتمل أمرين :

الأول : أن تكون راجعة إلى الخلق أي أن خلقه على هين ولنجعل خلقه آية للناس إذ ولد من غير ذكر ورحمة منا يرحم عبادنا بإظهار هذه الآيات حتى تكون

دلائل صدقه أبهر فيكون قبول قوله أقرب [١].

الثاني : أن نرجع الكنيات إلى الغلام ،وذلك لأنها لما تعجبت من كيفية وقوع هذا الأمر على خلاف العادة علمت أن الله تعالى جاعل ولدها آية على وقوع هذا الأمر على خلاف العادة ، ليكون دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم ويجعل هذا الغلام رحمة من الله ، نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله وتوحيده .

وعن مجاهد قال : قالت مريم عليها السلام : كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني وكبر ، وإذا كنت مع الناس سبح وحمد الله [٢].

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ المراد أنه معلوم لعلم الله تعالى ، فيمتنع وقوع خلافه لأنه لو لم يقع لانقلب علم الله جهلاً وهذا محال ، ويحتمل أن هذا الكلام من تمام كلام جبريل لمريم ، يخبرها أن هذا أمر مقدرا في علم الله تعالى وقدره ومشيئته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ : وبهذا ينتهي هذا الحوار بين جبريل ومريم عليها السلام[٣] .

البعد عن الناس

قال تعالى :﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا**﴾ [مريم: ١٥ـ٢١] .

هذا السياق القرآني يخرج القصة في مشاهد مثيرة ، حافلة بالعواطف والانفعالات التي تهز من يقرأها هزاً كأنما هو شهدها .

فهذه فتاة عذراء قديسة ، وهبتها أمها وهي في بطنها لخدمة المعبد ، لا يعرف

---

(١) التفسير الكبير .

(٢) مختصر ابن كثير ج١ـ ص٤٤٧.

(٣) الأحكام للقرطبي صـ٤١٣ .

عنهـا أحد إلا الطهـر والعفـة حتى لتنسب إلى هارون أبي سدنة المعـبد الإسـرائيلي المتطهرين ، ولا يعرف عن أسرتها إلا الطيبة والصلاح من قديم الأزل .

ها هي ذي تخلو إلى نفـسها لشـأن من شؤونهـا التي تقتضـي التواري عن أعين الناس ومن أهلها وتؤثر الاحتجاب عن أنظارهم ،ولا يحدد السياق القرآني هذا الشأن ربما لأنه شأن خاص جداً من خصوصيات الفتاة .

فتباعـدت وانفردت على سرعة إلى مكان يلي ناحيـة الشرق ، ومع وجودها في هذا المكان البعيد اتخذت من دون أهلها حجـاباً مستوراً ، وظاهر ذلك أنها لم تقتصر على أن انفـردت إلى مـوضع بل جـعلت بينهـا وبينهم حـائلاً من حائـط أو غيـره، ويحتمل أنها جعلت بين نفسها وبينهم ستراً .

وها هي في خلوتها مطمئنة إلـى انفرادها، ولكن ها هي تفاجأ مفاجـأة عنيفة إنه رجل مكتمل سوي ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾.

وها هي تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل في خلوتها ، فماذا تفعل أمام هذه المفاجأة التي ينخلع لها القلب، وخاصة لفتاة مثلها في طهارتها وعفتها..؟

والإجابة عن هذا التساؤل تلجأ إلى الله عز وجل ، تستعيذه به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل ، والخـوف من الله والتحرج من رقابته في هذا المكان الخالي .

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ .

أي ممن يتـقي الله ، فنكص جبـريل عليه السـلام فزعـاً من ذكر الرحمـن تبارك وتعالى ، وقيل: كان رجلاً صالحاً فتـعوذت به تعجباً ، وقال أبو وائل : علمت مريم أن التقي ذو نهية حين قالت :﴿ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ (١).

ويعلق الإمام الرازي على هذا فيقول :

وفيه وجوه :

أحـدها: أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله، ويحـصل ذلك بالاستعاذة به

(١) مرجع سابق .

فإني عائذة به منك ، وهذا في نهاية الحسن؛ لأنها علمت أنه لا يؤثر الاستعاذة إلا في التقي ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ، أي أن شرط الإيمان يوجب هذا لأن الله تعالى يخشى في حال دون حال .

وثانيها : أن معناه ما كنت تقيا حيث استحللت النظر إلي وخلوت بي، فالتقي ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ، ويرجع عن دفعه الشهوة ونزغ الشيطان . .وهنا يتمثل الخيال لتلك العذراء الطيبة البريئة ذات التربية الصالحة التي نشأت في وسط صالح .

وقيل : إنها قالت ذلك لما تبدى لها الملك في صورة بشر ، وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب خافت وظنت أنه يريدها على نفسها . فقالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا .

إذا أردنا أن نقترب من الحالة النفسية للسيدة العذراء عليها السلام ، فليتمثل الخيال مقدار الفزع والخجل وهذا الرجل السوي ، الذي لم تثق بعد بأنه رسول ربها ، فقد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها ، يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول ، وهو أنه يريد أن يهب لها غلاماً ، وهما في خلوة، ثم تدركها شجاعة الأنثى المهددة في عرضها . . .فتسأل في صراحة :كيف يكون لدي طفل دون أن يكون هناك علاقة بيني وبين رجل؟ . .

فكان الجواب من الأمين جبريل عليه السلام بأن ذلك ليس ببعيد أو غريبا على قدرة الله الذي يقول للشيء كن فيكون، وقد خلقك من قبل ولم تكوني شيئًا ، فضرب لها مثل نفسها حتى تكون مطمئنة .

وهنا انتهى الحوار الذي دار بين موميم وجبريل بزيادة يقين وحب وإيمان من جانب مريم عليها السلام [١].

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي جـ٢٢ص٢١٠ بتصرف يسير .

بشرى وأمل

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ [مريم: ١٩] .

لما علم جبريل خوفها قال : إنما أنا رسول ربك ، ليزول عنها ذلك الخوف ، ولكن الخوف لا يزول بمجرد هذا القول بل لابد من دلالة تدل على أنه جبريل عليه السلام، ولكن يحتمل أن يكون قد ظهرت معجزة عرفت به جبريل عليه السلام .

ويحتمل أنها عرفته من جهة زكريا عليه السلام حيث عرفها صفة الملائكة ، فلما قال لها : إنما أنا رسول ربك أظهر لها من باطن جسده ما عرفت أنه ملك فيكون ذلك هو العلم.

أو يكون أن الله عز وجل سكن فزعها وربط على قلبها فأيقنت أنه ملك ،وهذا من باب التثبيت ، يقول تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ والله أعلم بمراده هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى . .عندما قال لها جبريل عليه السلام : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا .

قال العلماء : أن لفظ الزكي يفيد أمورًا ثلاثة :

١ـ قالوا: إنه الطاهر من الذنوب .

٢ـ وقيل: إنه ينمو على التزكية لأنه يقال فيمن لا ذنب له زكي ، وفي الزرع النامي زكي .

٣ـ وقيل: المراد النزاهة والطهارة فيما يجب أن يكون عليه حين يصبح أن يبعث نبيا .

لطيفة :وقيل :سماه زكيا مع أنه لم يكن له شيء من الدنيا وأنت إذا نظرت في سوقك فمن لم يملك شيئاً فهو شقي عندك، وإنما الزكي من يملك المال وهذا بمقياس البشر[1].

---

(١) مرجع سبقت الإشارة إليه .

تمني الموت

﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾

إن هذا النص القرآني الكريم . . . يجعلنا نكاد نرى ملامحها ونحس اضطراب خواطرها ونلمس مواقع الألم فيها ، وهي تتمنى الموت ، حيث كانت وحيدة فريدة ، تعاني حيرة العذارى في أول مخاض لها ، ولا علم لها بشيء ، ولا معين لها في شيء في هذه الظروف وتلك الأحوال ، تمنت الموت ؛ لأنه قيل: إنه من عادة الصالحين أنهم إذا وقعوا في البلاء تمنوا الموت وأن يقولوا ذلك .

فقد روى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه نظر إلى طائر على شجرة فقال: طوبى لك يا طائر تقع على الشجرة وتأكل من الثمرة ، وددت أني ثمرة ينقرها الطائر . . . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه أخذ نبتة من الأرض قال: يا ليتني هذه النبتة يا ليتني لم أك شيئاً[١] .

وقال علي كرم الله وجهه يوم الجمل قال : يا ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، وعن بلال بن رباح ـ رضي الله عنه قال : ليت بلال لم تلده أمه ، فثبت أن هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الأمر عليهم ، وعلى هذا تمنت مريم عليها السلام أنها لو ماتت في هذه اللحظة ، وذلك لسببين [٢]:

الأول : أنها خافت أن يظن بها الشر في دينها ، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها ، بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها ، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه ، ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت نسيا منسيا ، أي لم تخلق بالكلية .

الثاني : من فرط رحمتها وحبها للخير وخوفها على الآخرين . . فخشيت أن يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنا وذلك مهلك وإلا فهي راضية بما بُشرت به من الملائكة [٣].

---

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي جـ٢١صـ١٨٥ .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير جـ٢صـ٥٥١.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب جـ٤ص٢٣٠٧ بتصرف .

وبينما هي في غمـرة هذا الألم وتلك الهواجس والأفكار ، وخواطرها تدور هنا وهناك ، وفي حدة الألم ، وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى، قال تعالى :﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ .

بريئة ومتهمة

إننا الآن على موعد مع هذا المشهد المثير من حياة هذه القديسة الطاهرة العفيفة ، النقية إننا نتصور الدهشة التي تعلو وجـوه القوم ، ويبدو أنهم أهل بيتها الأقربون في نطاق ضـيق محدود . وهم يـرون الطاهرة العذراء الموهوبة للهـيكل العابدة المنقـطعة للعبادة يرونها تحمل طفلاً .

وحقاً لهم أن يحـاروا ، وتصاب رؤوسهم بالدوار لأنهم لم يدركوا هذه الحقـيقة الإلهيـة التي تعجز عنها الأفـهام والعقول البـشرية ، وبدأت ألسنتهم تنطق بالتـقريع والتأنيب فقالوا : يا مريم لقد جئت شيئاً فظيعاً مستنكراً عجيباً خارجاً عن العادة ، ثم يتحول السخط إلى تهكم مـرير يا أخت هارون ، النبي الذي تولى الهيكل هو وذريته من بعده ، والتي تنتسـبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمـة الهيكل . .وقيل في هارون ـهذا أقوال منها ـ أنه رجل صالح من بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح، والمراد أنك كنت في الزهد كهارون فكيف صرت هكذا، وذكر قتـادة والمغيرة بن شعبة أن هارون هذا الصالح عندما مات تبع جنازته أربعون ألفـا كلهم يسمون بهارون تبركا به وباسمه .

وقيل: إنه هارون أخا موسى عليهما السلام ، وكانت من أعقابه، أي من ذريته.

وقيل : كان لها أخ يسمى هارون وكان من صلحاء بني إسرائيل فعيرت به .

وقيل : إنها أضيـفت إليه ووصف أبواها بالصلاح ، وحينئذ يصـير التوبيخ أشد لأن من كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش .

وقيل : إنهم كـانوا يسمون بأنبـيائهم والصالحين قبـلهم ، فقد جاء في صـحيح مسلم تحت رقم (٢١٣٥) كتاب الأدب بـاب النهي عن التكني بأبى القاسم من حديث المغيـرة بن شعبـة أنه قال : لما قدمت نجـران سألوني فقـالوا : إنكم تقرأون يا أخت هارون وموسى قـبل عيسى بكذا وكذا، فـلما قدمت على رسول الله ﷺ سـألته عن

ذلك فقال: «**إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم**»، هذا من ناحية . . .

ومن ناحية أخرى . . لما بلغوا في توبيخها سكتت وأشارت إليه أي إلى عيسى عليه السلام : أي هو الذي يجيبكم إذ ناطقتموه ، وعن السدى قال: لما أشارت إليه غضبوا غضباً شديداً وقالوا :لسخريتها بنا أشد من زناها ، وروى أنه كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته. .ثم قال: ﴿ **وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا** ﴾ ، أي وجعلني براً بوالدتي وذاك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له سواها ، فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هداها .

﴿ **وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا** ﴾، أي ليس بفظ ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته، ﴿ **وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** ﴾ ، هذه المواطن الثلاثة التي تكون أشد الأحوال على الإنسان ، فإنه ينتقل في كل منها من حال إلى حال ومن عالم إلى عالم آخر فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه ، ولهذا يستهل صارخا إذا خرج من الأحشاء وفارق لينها وضمها ينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها .

ولذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار ، وصار بعد الدور والقصور إلى الأموات سكان القبور ، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور ، فمن مسرور ومحبور ومحزون ومثبور وما بين جبير وكسير وفريق في الجنة وفريق في السعير .

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم عيسى ابن مريم عليه السلام على نفسه في هذه المواطن الثلاثة وسلم منها ، وقدر الله له السلام والأمانة والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا[1] .

فلما ضاق الحال وانحصر المحال وامتنع المقال عظم التوكل على ذي الجلال ، ولم يبق إلا الإخلاص ، والاتكال ، ﴿ **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ** ﴾ ، أي قالت لهم : خاطبوه ، وكلموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه .

فعندها قالوا من كان منهم جباراً شقيا ،﴿ **قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا** ﴾.

---

(١) حقوق يجب أن تعرف ،الشيخ محمد حسان صـ١٤٩ .

أي كيف تحيلنا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب ولا يحسن الكلام ، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بين مخض وزبدة ، وما هذا إلا منك إلا على سبيل التهكم .

فماذا نقول في العجب والغيظ الذي ساورهم وهم يرون عذراء تواجههم بطفل وتسخر ممن يستنكرون فعلتها فتصمت وتشير إليهم وإلى الطفل ليسألوه عن سرها . فيقولون : ما هذا إلا استهزاء ونقص لنا وازدراء إذ لا تردين علينا قولاً نطيقاً بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبيا فعندها قال :

﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠ـ٣٣] .

هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم عليه السلام ، فكان أول ما تكلم به أن قال ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ اعتراف لربه بالعبودية ، وأن الله ربه، فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله ، بل هو عبده ورسوله وابن أمته ، ثم برأ أمه مما نسب إليها الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله : ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ فإن الله جل وعلا لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم كما قال تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ .

وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا : إنها حملت به من زنى في زمن الحيض لعنهم الله ، فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صديقة، واتخذ ولدها نبياً مرسلاً أحد أولي العزم الخمسة الكبار؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ وذلك أنه كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقدس: ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ وهذه وظيفة العبد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة ، والإحسان إلى الخليقة بالزكاة ، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف وقرى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات[1] .

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير صـ٥٥٥ .